بين الكينونة والامتلاك

الأنوار ١٤ شباط ٢٠١٨

تتّصف اشكالية الكينونة والامتلاك اليوم بحدة خاصة. يحيا كوكبنا عمومًا في أزمة إقتصادية نادرة ينبغي أن تضع نمط تطورنا على بساط البحث وهو نمط مرتكز على نموّ موصول للانتاج والاستهلاك. يجب ضبط الاقتصاد وكذلك تحويل لطلب شطر ما هو أقل تلوثاً وأكثر تضامنًا.

يعتَبر الاستهلاك في ايامنا محرّك التقدّم في المستويَين الاقتصادي والاديولوجي. فما يصبو اليه المرء سيارة من آخر طراز وأحدث خلوي وتلفاز وكمبيوتر في كل غرفة من المنزل. ولدى كل إنسان فرد الامتلاك والتراكم والتغيير المستمر للمواد باتت كلها هي معنى الوجود الاخير.

الحضارة اليوم كوكبية المدى. وعدد كبير من سكّان العالم «الثالث» طفقوا ينظرون بطرق العين في رغبة جامحة الى ذاك النموذج الغربي المهدَّد على الدوام. وهنا تطرح التساؤلات حول معنى الاقتصاد وقيمة المال والاسباب الحقيقية وراء التوازن الاجتماعي والسعادة الفردية.

الازمات المشار اليها هنا تستدعي اعادة النظر في الثوابت المألوفة ولا سيما المال والاستهلاك. هذه الازمات ليست اقتصادية ومالية وحسب، وانما ايضًا فلسفية وروحية. وهي تحيلنا على تساؤلات عامة من مثل : ما الذي يجعل الكائن البشري سعيدًا؟ ما الذي من شأنه ان يعتبَر تقدمًا حقيقيًا؟ ما شروط حياة اجتماعيّة متناغمة؟ مَن او ما الذي يستجيب للتساؤلات والحاجات الاعمق في ازمة كوكبنا الحالية؟ هل من شأن الكائن البشري ان يكون سعيدًا ويعيش في تناغم مع الآخرين في ظل حضارة مبنية كليًا على نموذج «الامتلاك»؟ اليس المال وحيازة الخيرات المادية مجرّد وسائل ذات شأن بلا شك ولكنها ليست قط غاية في ذاتها؟ ان الرغبة في الامتلاك هي، في طبيعتها، نهمة لا تشبع، وتولّد كبتًا واعمالَ عنف. يتوسّل الكائن البشري القوة لامتلاك ما ليس له عند جاره. والحال ان الانسان، ما إن يلبي حاجاته المادية الضرورية«من غذاء ومسكن وما يوفّر له حياة لائقة» حتى يشعر بحاجة الى ولوج منطق آخر غير منطق «الامتلاك» ليشفي غلّته ويغدو في «تمام» انسانيته: انه منطق «الكينونة». هذا هو التطور المبدئي لدى الانسان او المجتمع السوي. ينبغي للمرء اذًا ان يتعلّم كيفية معرفة نفسه والسيطرة على نفسه، وتاليًا ضبط العالم المحيط به واحترامه. عليه اكتشاف كيف يحب وكيف يعيش مع الآخرين ويدير مكامن كبته وبلوغ طمأنينة النفس والسيطرة على آلام الحياة التي لا محيد عنها وكذلك تمهيد استحقاقات الحياة القصوى. ذلك انه، لئن كان الوجود واقعاً، فالحياة فن. وهو فن نتعلّمه عبر مساءلة الحكماء وتهذيب الذات.

لنعد الى حكمائنا الذين يعلّموننا الحياة. ان شهادة حياتهم والتعليم الذي يقدّمانه هما عامان ومتجددان ابدًا. ورسالتهم ترتكز على الكينونة الفردية ونموها من غير ان تنكر ضرورة اندراجها في الاطار الاجتماعي. وهي تعيّن نسبة ذكية من الحرية والمحبة، من معرفة الذات واحترام الآخرين. قد تتجذّر الرسالة في اساس من الاعتقادات الدينية وانما بعيدًا عن العقدية المتعجرفة او المنحرفة. فهناك دور للعقل وآخر للقلب، هناك مكانة للعدل الصارم واخرى للمحبة السخية.

ثمة حكماء وانبياء واولياء وضعوا الاسس الاولى للأنسنة الروحية. كوكبنا اليوم شبه مواجهة متداخلة بين نظرة محض تجارية ومادية من جهة، وتعصّب وعقيدة دينية من جهة ثانية. هذان الاتجاهان متعارضان ظاهريًا لأن كل شيء يجمعهما لقيادة العالم الى الخواء إذ ان الكائن البشري يبقى في منطق «الامتلاك» والخضوع الطفولي والسيطرة. البحث عن «الكينونة» والمسؤولية – الفردية والجماعية– وحدَه من شأنه ان يخلصنا من ذواتنا. هذا ما يعلمناه، نحن الشرقيين خصوصاً، كبار الحكماء والانبياء الذين انبثق معظمهم من شرقنا بالذات! متى ننتقل من الامتلاك المشبوه الى الكينونة الحقة؟ تستهلك شعوبنا في فوضى وقلما تنتج في حال اننا نادراً ما نطرح اشكالية الكينونة البشرية لمصلحة حفنة من الناس.